حتى لايقضى الجديد على روعة القديم !

تصوير : محمد سامي

إنهم فى الخارج يحرصون على أن تكون الاحياء متشابهة من حيث اللون وارتفاع المبانى .. حتى يحافظوا على طابع مدنهم .. أما عندنا فى القاهرة فان المبانى الموجودة ليست إلا كرنفالا مضحكا اختلطت فيه الالوان والاحجام ..

سلوى مطاوع □ ألفت بدور

ومن المؤكد أن القاهرة — مثل أية مدينة أخرى تواجه حركة تعمير وبناء واتساع تزداد عاما بعد عام وسنة بعد سنة ..

ومن المؤكد أيضا أن الحياة تتغير معالمها بسرعة ... حتى إن قاهرة اليوم تختلف نتيجة لتطور الحياة عن قاهرة الأمس .. كل هذا صحيح ومقبول .. ولكن هل يعنى ذلك ألا نحافظ على تراثنا القديم ؟ ... وهل معنى ذلك أن تضيع معالم الأحياء التاريخية القديمة بحجة التطور ؟ . إن مسألة حماية مواقع المبانى الأثرية والحفاظ عليها وخاصة ذات الطراز المعمارى المتميز قد شغلت العالم كله ، حتى إن الكثير من الدول قد وضعت التشريعات اللازمة لحماية هذه الأماكن ... فرنسا مثلا وإيطاليا والسويد والولايات المتحدة وغيرها أمنت بإصدار مثل هذه التشريعات ... واهتمت قبل ذلك بتنفيذها ...

ومع إصدار هذه التشريعات أمكن وضع خطط التوسعات فى المبانى وإقامة المصانع بطريقة تمكن بها حماية المناطق الأثرية والأحياء ذات الطابع الخاص والحفاظ عليها ... وهكذا تتسع المدن وتنمو وتكبر وتبقى محتفظة بطابعها الخاص ... ورغم كل هذا فإن منظمة اليونسكو لم تكتف بهذه التدابير المحلية . إنما رأت أنه من الضرورى استحداث أداة دولية للحفاظ على الأحياء والمدن والمواقع التاريخية .. وكانت نتيجة المؤتمر الثامن عشر لليونسكو الذى شارك فيه حوالى ٤٣ دولة من بينها مصر أن أصدر توصيات عالية للحفاظ على هذا المعنى ..

من بينها اعتبار المناطق التاريخية وبيئاتها جزءا من التراث العالمى ومن واجب الحكومات والأفراد الذين تقع فى أراضيهم تلك المناطق الحفاظ عليها وضمان تناسقها مع الحياة الاجتماعية .. كما أنه لابد من حماية المناطق التاريخية من جميع الأخطار لاسيما من الاستخدام غير المناسب أو من إضافة أو تعديل أو إجراء صيانة لاتقوم على أسس علمية مع ضرورة الحفاظ على الحجال والانسجام الناجمين عن الترابط والتباين بين المبانى داخل المناطق التاريخية وأيضا لابد من مراعاة ضمان عدم المساس بالمناطق الأثرية أو تشويهها بسبب إقامة عمارات حديثة ومجمعات ضخمة قريبة منها ...

بالإضافة إلى التزام كل دولة بتحديد السياسة العامة من حيث اتخاذ الاجراءات القانونية والفنية والاقتصادية والاجتماعية لحماية المناطق التاريخية والأماكن الموجودة فيها ... أما أهم التدابير الفنية والاقتصادية التى تضمنتها هذه التوصيات فكانت عبارة عن إعداد قوائم بالمناطق والأحياء التاريخية التى يجب الحفاظ عليها مع تحديد أولويات ما يحتاج منها إلى إجراءات فورية . ووجوب وضع الاجراءات الكفيلة بالرقابة على تشييد العمارات الحديثة فى المناطق والأحياء التاريخية مع وضع مواصفات لها من حيث الارتفاع والمساحة واللون والشكل وحتى مادة البناء ... كما يجب حماية المناطق والأحياء التاريخية من إقامة العوامل قريبا منها لمنع تلوث الهواء وتفادى الضجيج ... ومن الغريب أن مصر اشتركت فى إصدار هذه التوصيات ومن الغريب أيضا أننا لم نحاول أن ننقل منها حرفا واحدا ؟

فما الذى فعلناه بقاهرتنا ؟ ..

هل يذكر أحد حديقة الأمريكين .. ؟ هل يذكر كيف كانت ؟

أغلب الظن أن الكثيرين لايعرفون أن هذه الحديقة كانت فى وقت من الأوقات إحدى العرائس التى تتزين بها القاهرة . وكانت أيضا أحد المتاحف الحية لأندر الأشجار والنباتات ..

والرثة التى يتنفس بها سكان القاهرة ... يكفى أن نعرف أن مساحتها كانت تصل إلى ٢٠ فدانا فما الذى حدث لها .. كل عام كنا نستقطع منها جزءا للوجوه ... حتى أصبحت أطلالا لا أثر فيها للحديقة القديمة التى كانت من أشهر معالم القاهرة ... وتحولت العشرون فدانا إلى بضعة أمتار لا علاقة لها بالحديقة إلا فى تشابه الأسماء ...

وسير النيل هل ينكر أحد أنه من أشهر معالم القاهرة على وجه الإطلاق .. وهل نذكر القاهرة بدون نيلها العظيم .. ولم يكن غريبا أن يحرص كل الذين شاركوا فى بناء القاهرة على إبراز هذا السير وجعله متاحا للرؤية من أى مكان ... وكما يقول بدر الدين أبو غازى عضو المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون فى الندوة الخاصة بالمدينة المصرية المعاصرة والمحافظة على طابعها القومى والحضارى ... إنه منذ أقام المصريون القدماء عاصمتهم « منف » القديمة على مشارف القاهرة الحالية وهم يبدعون النماذج المعمارية التى تحافظ على جلال سير النيل . أما اليوم فإننا نبارينا فى بناء الكتل المعمارية غير المرتبطة التى كادت أن تخنق النهر وتذهب بجلاله ... ولم يقتصر الأمر على سير النيل فحسب ... فهناك الأهرامات أيضا .. فمن الطريق إليها نجد من القوضى المعمارية مالا نظير له ... أفسدت جلال المكان وأضاعت معالمه ... وزاد الأمر سواء ما يجرى من تشوية الطريق إلى هذا الأثر الخالد بدعوى التجميل خاصة ما يقام فيه من أحواض للزهور ومن التماثيل التى تفسد الرؤية وتذهب بالجلال الذى يجب أن يبقى فى نفوس رواد هذه الآثار الفريدة فى الخيرة وسقارة ... نفس الشئ نجده فى بقعة من أروع بقاع القاهرة الإسلامية نجد جامع السلطان حسن والقلعة حيث أحدثنا من الشغب المعمارى ماشوه روعة المكان وعظمته وبدلا من أن تضع الدولة تخطيطا يحفظ لهذه المواقع جلالها . شاركت هى بما أقامته من مبان فى التزحف على شكل عدوان على هذه الآثار .. ثم هناك أيضا جامع عمرو بن العاص والانشاءات التى تتم فيه حاليا ...

إن هذه الانشاءات الحديثة هى فى الواقع نوع من القوضى المعمارية التى تتعارض مع الطابع الإسلامى القديم للجامع وليس هناك أغرب من التعديات المجاورة لمدينة الفسطاط القديمة

ومن صور تلك التعديات يكفل بدر الدين أبو غازى كلامه فيقول :

هل نتصور أنه توجد فى هذه المنطقة بعض شركات المقاولات التابعة للقطاع العام .. وهل نتصور أنه توجد أيضا قائن لحرق الجير ...

وهل فكر أحد أن هذه القمائن يمكن تحت أى ظروف أن تحرق الآثار الموجودة حولها ... ثم بعد هذا كله بدأت تنتشر فكرة بناء الكبارى العلوية فى المناطق الأثرية الإسلامية ... كمنطقة الأزهر ومنطقة السيدة عائشة ...

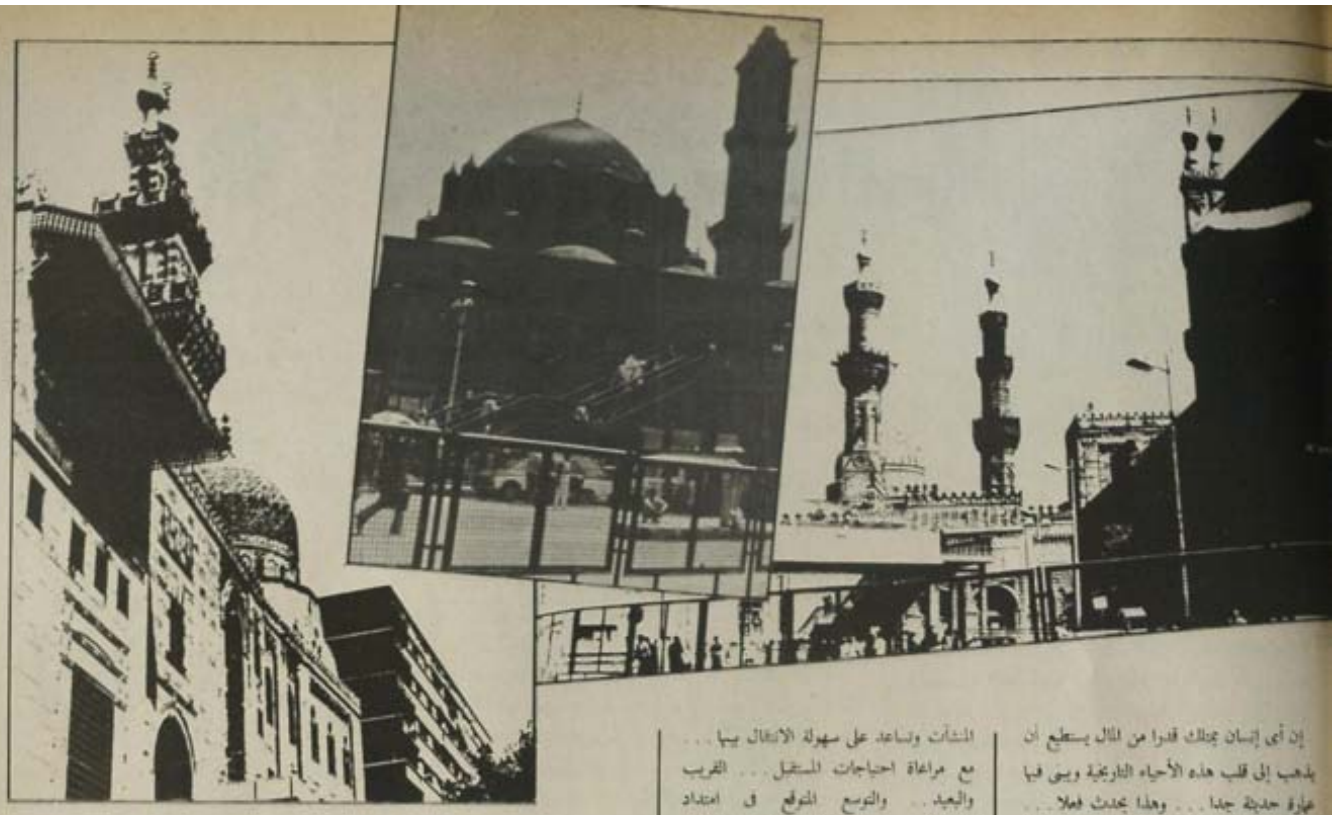

إن أى إنسان يمتلك قدرا من المال يستطيع أن يذهب إلى قلب هذه الأحياء التاريخية ويبنى فيها عمارة حديثة جدا . . . وهذا يحدث فعلا . . . بل إن كل الأحياء القديمة التاريخية تحتوى فعلا على مجموعة من المبانى الحديثة التى لا علاقة لها بالحى الموجودة فيه . . .

إنهم فى الخارج يحرصون على أن تكون الأحياء متشابهة من حيث اللون وارتفاع المبانى . . . حتى يحافظوا على طابع مدنهم . . . أما عندنا فى القاهرة فإن المبانى الموجودة ليست إلا كرنفالا مضحكا اختلطت فيه الألوان والأحجام . . . وأن الإنسان يستطيع أن يبنى أى مبنى بأى لون وبأى ارتفاع . . . وفى أى مكان . . . وبأى شكل . . . وهناك عشرات الأمثلة تؤكد أننا فعلنا بالقاهرة الكثير والكثير . . لو استمر الحال هكذا فإننا سنحول الكثير الذى بين أيدينا إلى تراب . . ! هذا إذا لم نكن حولناه فعلا . . ! !

إن هذه الفوضى التى نراها اليوم فى مدينة القاهرة والتى راح ضحيتها الكثير من الأحياء التاريخية التى تظهر آثارها حتى فى الأحياء الحديثة التى يبدو فيها التأثر واضحا . . إن كل هذه الفوضى ليست إلا نتيجة افتقادنا لعلم اسمه تخطيط المدن . . .

وكما يقول المهندس عبد المنعم هيكل عضو المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية . . إن تخطيط المدن يهدف بصفة عامة إلى حسن تنسيق مختلف المبانى والمنشآت التى تقام فوق هذه المدن مع مراعاة توزيع أنواع هذه المنشآت والخدمات المختلفة التى تؤديها وتوزيعها بما يتمشى مع نوعية الخدمات ومدى علاقتها ببعضها ومقدار احتياج سكان المدينة إلى الاتصال بها . .

وتبرز فى هذا التخطيط أهمية الشوارع الرئيسية والميادين العامة التى تربط بين مختلف هذه المنشآت وتساعد على سهولة الانتقال بينها . . . مع مراعاة احتياجات المستقبل . . . القريب والبعيد . . والتوسع المتوقع فى امتداد العمران . . . وبحيث تحدد الصلة بين مختلف أحياء المدينة .

والتخطيط علم كبير عميق الجذور . . . فهو ليس عملا هندسيا فقط ينحصر فى رسم الشوارع وإقامة المبانى . . . بل هو عمل هندسى فنى واقتصادى واجتماعى . . . ومن أصول علم تخطيط المدن . الاحتفاظ للمناطق الأثرية الدينية بجلالها . . . وبعض الأحياء بمذاقها الخاص . . . ولو أننا استوعبنا هذا العلم . . لما كان هذا حال القاهرة اليوم . . ومن الغريب أن هذا العلم الذى لم نتمكن من استيعابه والذى جعل القاهرة تصل إلى ما وصلت إليه . كان فى حسبان الذين بنوا القاهرة لذا كان تنظيم القاهرة وتخطيط مبانيها يخضعان لقوانين وضعت منذ الفتح الإسلامى . . !

لقد وضع المشروع الإسلامى القوانين العديدة التى تناولت سعة الشوارع والطرق واتفق أجدادنا «على أن الطريق النافذ يباح المرور فيه لكل إنسان واشترطوا فى إقامة الأبسطة والقباب أن تكون مرتفعة بحيث يمر الفارس من تحتها وهو على جواده ورمحه قائم . كما حددوا سعة الشوارع والحارات والأزقة . والزموا كل من يبنى بيتا ألا يخرج به عن حدود جاره . كما ألزموا الملاك بإزالة المبانى الداعية . وأيضا كانوا لا يرخصون بإقامة مصابغ للصناعات القليلة أو مصانع الزجاج أو قالى القلوب أو الخبز إلا خارج القاهرة . . وقد بلغ من التشديد فى تنفيذ تلك القوانين فى ذلك الوقت . أى منذ حوالى أكثر من ٨٠٠ عام – النص على إزالة المبانى المعترضة للطريق أو التى تعلقه وهدمها حتى لو كانت مسجدا . . ! !

ولم تقتصر العناية على الاهتمام بطرق القاهرة وتمهيدها . إنما تعدتها إلى تجميلها . . . فكان أجدادنا يقومون بستر الخرائب عن العيون . . . تماما كما نفعل بوضع لوحات الإعلانات عليها . وفى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى كلف أول مجلس لتنظيم القاهرة بالإشراف على تجميلها وتمهيد طرقها . فأحصيت الخرائب وقسمت إلى قسمين . . قسم تراه الحكومة لازما لها فأخذه والقسم الآخر يباع للقادرين على بنائه . . . هكذا كان أجدادنا يهتمون بالقاهرة وبالتخطيط لها والحفاظ عليها . . فهل نفعل مثلما كان يفعل أجدادنا . . . .

إن المهندس فؤاد الجوهرى وكيل وزارة الإسكان بمحافظة القاهرة يؤكد أن المحافظة قد وضعت خطة بعدم السماح بإقامة أى مبان سكنية على ضفاف النيل . ولكنه فى نفس الوقت يؤكد أننا لا نستطيع هدم المبانى الخالية الموجودة حول النهر والتى تكاد تخنقه . . وفى نفس الوقت فهو يؤكد أن : المحافظة لا تعطى ترخيصا بالبناء فى المناطق الأثرية إلا للمبانى التى تتفق مع البيئة المحيطة ولكننا نسأل المهندس فؤاد الجوهرى هل تلتزم فعلا بتنفيذ هذا القانون . . . وإذا كنا نلتزم به فعلا فهل المبانى الحديثة الموجودة فى هذه الأحياء التاريخية هى فعلا من وحى البيئة . وتتفق مع الجو العام لها ؟ أو أنها – وهذا هو الواقع – نوع من التنافر المعمارى الذى تضيع فيه هذه الأحياء التاريخية ويشوه معالمها الأصلية . . . بجانبا المهندس فؤاد الجوهرى على هذه التساؤلات فيقول : إننا فى النهاية مضطرون للتسليم بكل ما حدث . . فليس من المعقول أن نعيد للقاهرة كل ما أخذناه منها . وليس من المعقول أن نهدم الآن المبانى التى أقيمت بلا مبنى وسط الأحياء التاريخية القديمة أو التى حفت نهر النيل . . . وليس من المعقول أن نعيد توسيع الشوارع الضيقة . ليس من المعقول كل هذا . . ولكن على الأقل يجب ألا نستمر فى هذا الخط المدمر للقاهرة . . ولابد أن نعمل على إنقاذ ما يمكن انقاذه مما تبقى للحفاظ على ما بين أيدينا من معالم حضارة القاهرة . . . ومن الضرورى أن نذكر أن المسئولين قد اهتموا أخيرا بهذه القضية فقام المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بتنظيم ندوة خاصة ناقشت هذه القضية وقدمت لها الحلول . . . ومن بينها كلام كثير حول ضرورة إعداد تخطيط سليم للقاهرة يراعى فيه احتياجاتها الحالية والمستقبلية مع الحفاظ على المساحات الخضراء والأحياء التاريخية . كما أن هناك اقتراحا بتشكيل لجنة قومية عليا لتخطيط القاهرة تكون قراراتها ملزمة مع إعادة النظر فى قانون حماية الآثار وقانون تنظيم المبانى . . . خاصة أن قانون الآثار الحالى قد قصر حمايته على الآثار الموجودة حتى عصر الخديو اسماعيل . أما بعد الخديو اسماعيل فإنه تحفة موجودة لا تعتبر من الآثار التى يجوز حمايتها وينطبق عليها القانون . والمطلوب بعد ذلك إصدار التشريعات المناسبة لحماية هذه المناطق والحفاظ على طابع القاهرة ولكن هل يكفى هذا؟ هل تكفى هذه الاجراءات ؟ . نظن أنه لا جدوى منها فى غياب الضوابط الأساسية والوعى بالقيم الجمالية والتراث الحضارى . وأية تراثيات أو تشريعات أو قوانين تصدر فى غياب هذه الضوابط وهذا الوعى المطلوب بالتراث الحضارى ستؤدى فى النهاية إلى نتائج عكسية تماما . . وساعتها لن يتبقى من قاهرتنا إلا اسمها الحبيب فقط . . !